الفصل الثانى ٢

بدايات وبناء

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــد

بعد أن اتضحت لنا أبعاد «الغزو الفكرى» وتياراته، وحركاته التى تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من الغزو الفكرى؟ إن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى، وهو حركة فكرية هائلة وما تنتجه هذه الحركة يخصنا نحن المسلمين ويخص عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى حركة عملية هائلة تأخذ المواقع وتسيطر على القلوب.

والغزو الفكرى بحركته الفكرية والعملية من أخطر ما نواجه فى حياتنا لأن ما يقوم به من أهداف تقوض الدعائم يتعلق بأعمق أعماقنا عقدياً وفكرياً وحضارياً. وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدى وإثبات الذات وإلا فلسنا جديرين بالحياة.

ولا يخفى على أحد أن السعى إلى إثبات الذات والعمل على مواجهة هذه التحديات والتيارات الغازية دليل صحة ودليل صحوة. . . . إذن لا بد من منهج.

والمنهج الصحيح هو أن نواجه الفكر بالفكر والعمل بالعمل. ولكن قبل أن نواجه الغزو الفكرى لا بد من بناء شخصيتنا وتحصين أنفسنا لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو ليست عندنا قابلية له. . وإذا تحصنا لم يعد للغزو تأثير فينا. ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكرى الذى تسلط على المجتمعات الإسلامية هو هدم شخصية المسلمين هدماً عقدياً وثقافياً وفكرياً.

ولا يخفى أن انهدام الشخصية يساعد على قبول الزيوف والأباطيل كما يدفع إلى التبعية والذوبان.

ولهذا كان لا بد لنا إذا رغبنا أن لا تؤثر فينا مخططات المتربصين أن نبنى شخصيتنا بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام وموسومة بميسم الإيمان،

والشخصية المصبوغة بالإسلام والموسومة بميسم الإيمان شخصية إيجابية تعيش فى حركة فكرية ونفسية وجسدية بناءة تعطى وتأخذ وتعطى أكثر مما تأخذ.

ولا شك أن إدراكنا لضرورة الإسلام لنا ولغيرنا يفتح أعيننا على مكانتنا كما ينبهنا إلى موقعنا ومركزنا.

وجدير بنا ونحن نخطو على مجد نسعى إليه أن نتعرف على حقيقة الإيمان فإذا وقفنا على الحقيقة وتعلقنا بها كان لنا دور.

ومن شأننا ونحن نتابع الخطى أن نعرف ما الذى نأخذه من الأمم غيرنا وما الذى لا يصلح لنا.

ويجب أن ندرك أن إعداد القوة ضرورة من ضرورات الحياة حتى يتم النمو ويكمل البناء.

obeikandl.com

ضرورة الإســـلام

إن الإنسان آية الله فى خلقه طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى إزكاء النفس واستواء الفطرة وقصد السبيل فإن الثانية تشده إلى النقيض تماماً بتمام. وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه. ويجعله على طول الخط سوى المنهج قويم السبيل زكى الباعث نبيل المقصد، متعلقاً بمعالى الأمور، نائياً عن سفافها يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله وأحضان الطاعة له وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل فلا بد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه ومعرفة مكانه فى هذا الكون الذى يستقر فيه[1]، فلا بد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية، مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[2].

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى العقيدة، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة ورسالته وعمله ودوره[3].

---

(١) د. أحمد السايح: «العقيدة فى الإسلام»، مجلة جوهر الإسلام، العدد الثانى والثالث، ص: ١٦ من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد محمد جمال الدين: «فطرة وميثاق»، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة: ١٣٨٩هـ، ص: ٢٠٠، ط: العالم الإسلامى، بمكة المكرمة.

وقد أودع الله – سبحانه وتعالى – فى الإنسان، ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى فى الوجود[1] وندبه الله – سبحانه وتعالى – للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التى يراها الحس والعقل والوجدن، فى الآفاق وفى النفس، وفى كل شىء[2]، ففى الأرض آيات للمؤمنين، وفى السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة، هى التى تتوجه إلى الكون، بروح متفتحة، تكشف ما فيه من قصد، وتصميم وإبداع، وتنتهى إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصوير تتحدد علاقة الإنسان بربه – عز وجل –[3].

فالإنسان لا غنى له عن الدين، لأنه يحسه فى نفسه، شعوراً ووجداناً ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[4].

وقول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

ففى هذه الآية: بيَّن الله – تعالى – أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ألست بربكم، فأجابوا: «بلى شهدنا» بذلك، فالله – سبحانه وتعالى – أشدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا على هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[5].

---

(١) قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ سورة النحل، آية ٧٨.

(٢) قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ سورة فصلت، آية ٥٣.

(٣) د. عبدالكريم عثمان: «معالم الثقافة الإسلامية»، ص: ١٦، ط: الثالثة، مؤسسة دار الأنوار، بالرياض، سنة: ١٣٩٤هـ.

(٤) رواه البخارى فى مواضع من صحيحه.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص: ٥٠٠-٥٦٠.

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت، أو كل الوقت، ثم يعودون إليها، ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿.... **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ (النازعات: ٢٤). وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق قال: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (يونس: ٩٠).

والمشركون بالله، والكافرون به، فى كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام، ويستقسمون بالأزلام. فإذا مسهم الضر فى البر، أو فى البحر، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ**﴾ (يونس: ١٢).

ومن هذا يتبين: أنه يوجد فى طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل فى فطرة الإنسان، وموجود فى أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. «فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة فى الكيان البشرى، فطرة أودعها الله الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته. وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى»[1].

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف فى البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر. وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت: ١١).

والإنسان وإن كان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال القلب بمطالب جسده، ومطالبه

(١) سيد قطب: «فى ظلال القرآن»، ج٣، ص: ١٣٩١هـ.

المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطرى للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللا شعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللا شعور، فيظهر جلياً واضحاً فى الإدراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[1] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين، أو الاعتقاد بدين من الأديان، أمر غريزى، ويشترك بين الناس عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان، من عقيدة دينية على نحو ما - «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون. ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين»[2]، إذن لا بد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرّم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه، أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمّله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل - عليهم الصلاة والسلام[3] -.

إذن «لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿.. **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ٣٠)

---

(١) د. محمد عثمان نجاتى: «القرآن وعلم النفس»، ص: ٤٧، بتصرف يسير، ط: دار الشروق بالقاهرة، سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٢) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٧، ط: مكتب وهبة بالقاهرة، سنة: ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.

(٣) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر»، ص: ١٢٦، ط: دار الرشد بالرياض، سنة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

كان لا بد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها على سد منافذ الشر والطغيان»[1].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التى لا حياة له إلا بها[2] والله - سبحانه وتعالى - قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظماً وأحكاماً، تسعدهم فى الدنيا والآخرة، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يحمل الناس على كامل الطاعة، ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى - فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء: ١٦٥)، وقد شرع الله - تعالى - لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم[3].

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزياً وفطرياً فى الإنسان، فى كل زمان - كما عرضنا - فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق، الذى رضيه الله - تعالى - للناس جميعاً. والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ...**﴾ (آل عمران: ١٩) تعنى: مجموعة المبادىء الإسلامية وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كثيرة عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها - إذن - رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسانية، فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى: ﴿**..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً..**﴾ (المائدة: ٣)، ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى المعتقد الدينى يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها»[4].

---

(٢) محمد شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ١٩، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة: ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٤.

(٣) د. شوكت عليان: «الثقافة الإسلامية وتحديات العصر»، ص: ١٢٧.

(٤) د. أحمد السايح: «الفضيلة والفضائل فى الإسلام»، ص: ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

فالديانات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله - تعالى - واتحدت - أيضاً - فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الديانات جميعاً هو: تصحيح العقيدة أولاً، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..**﴾ (النحل: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٢٥) وقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..**﴾ (الشورى: ١٣).

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع، هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر، ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[١].

وكلمة الإسلام، وفى الإطار اللفظى تعنى: التسليم والخضوع، وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم، والخضوع لله وحده لا شريك له، وبهذا المعنى، أطلقت على كل من آمن بالله من أصحاب الأديان السماوية الحقة، هم مسلمون بهذا المعنى[٢].

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده[٣].

---

(١) د. أحمد السايح: «الفضيلة والفضائل فى الإسلام»، ص: ٢٨-٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٩ بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٩.

فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى، والروحى. فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام حياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً.

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادى والإلحادى.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته، يميل إلى التعارف، والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - التعارف بين الناس، من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣)، هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وإنما جعل أولاً غذاءاً لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى، يبين ذلك الفكر محمد عبدالله دراز، فيقول: «إنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع، ووازع، يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرماته»[(١)].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر - دون أن نجانب الصواب - أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينة فيه. والسر فى ذلك، أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية، بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده، ولا فى عنقه،

(١) د. محمد عبد الله دراز: «الدين»، ص: ٩٨.

ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة. وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها[1].

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن، أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهى، أو وضعى: لأن لكل حضارة شطرين: شطراً روحياً، وشطراً مادياً، فالشطر المادى يعتمد على الحس والعقل، وليس الأمر كذلك، فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى.

والشطر النظرى: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع[2]، ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية فى الجانب النظرى، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هادٍ للعقل، كان لا بد فى استخدام العلم، من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: «أن من الخطأ المبين، أن يظن بعض الناس أن فى نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى»[3] ذلك «أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير»[4] فكما يتعمل للخير، يتعمل كذلك للشر، فلا بد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصورة فى الجانب الحسى المحض. فهو يقف عند حدود

---

(١) المصدر السابق، ص: ٩٨.

(٢) د. عبدالحليم محمود: «الإسلام وتنظيم المجتمع»، ص: ٥، ط: دار الكتاب العربى بمصر.

(٣) د. محمد عبدالله دراز: «الدين»، ص: ٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص: ٩٩.

لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين فى الحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية، وتشريعات سماوية، يكفل للمجتمع الإنسانى، كل عوامل السعادة، والأمن والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضج عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

لقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - بالدين الإسلامى، وهو خاتم الرسالات الإلهية، ما هو حق وخير، فى مجتمع شئون الحياة فهو لم يترك الإنسان سدى، بل بيّن له الرشد من الغى، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوى، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردى والاجتماعى، والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس جميعاً، فالدين الإسلامى فيه صلاح الناس جميعاً، حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلى السليم، ولذلك كان الوحى الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية[1].

والله الذى خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه، والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم، ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنّه لهم، من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم، وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[2].

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادىء سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبى: «الدين والتدين»، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، ج:١، ص:٥٤، الصادرة سنة: ١٣٩٥هـ- ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله. وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس قوى متين، من ربط العبد بخالقه[1].

فهو إذن مطلب إنسانى رفيع، يغذى جانب الروح ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمح العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية، تجعل منه غذاءاً ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها، توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[2]. وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، فى مختلف ملكاتها ومظاهرها. ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله - تعالى - ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى التدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر، وما تخفى الصدور، فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية والاجتماعية.

فالدين يزكى النفس، ويطرها، ويحول دائماً بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له فى كل شىء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان، وطبيعته، ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية. . فالدين يقيم

(١) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ١٨.

(٢) د. محمد عبدالرحمن بيصار: «العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع»، ص: ٩٢، ط: الرابعة، الانجلو المصرية بالقاهرة.

نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية فى حاجة إلى الدين، لتربية الإنسان، الذى كرّمه الله تعالى فقال: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين: ٤)، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسان إلى العقيدة نزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين أنه الحياة، وبأنه النور الذى يضىء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لا بد من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الإنسانية، التى قام الإسلام عليها، ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة، والإحسان، كان لذلك أثر بالغ فى سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له فى أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأسباب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه[1].

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج، نستمد يقيننا الذى لا يتزعزع، فى أن المستقبل لهذا الدين، المتعطشة إليه البشرية جمعاء[2].

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ١١٤.

(٢) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ٢٣.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين فى حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك فى تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير، إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لا تغنى عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥).

لقد كان الإنسان فى الماضى يعبد ما لا ينفع، ولا يضر، وكان يخاف من كل شىء، فجاء الدين الحق، ودعا الناس إلى التحرر من خوف غير الله، وما عداه من المخلوقات، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شىء.

إن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية فى هذا العصر، فسوف يجد أنها فى أمسّ الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية - برغم التقدم الحضارى - فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضباعت عقولهم. فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه من كل ضبط، وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة، وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط.

ومن تعاسة الحضارة المادية، إنها عكست كرائم النعم، والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان عكساً أسقط الإنسان فى وديان الهلاك والدمار، وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان فراجت خسائس العادات وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح والشذوذ فى السلوك وظواهر الخنفسية والهيبيز والارتخاص والابتذال والخلاعة[1].

لقد تقدمت العلوم بلا ريب ولكن هذه الحضارة التى علّمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٢٦.

وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء أو تعثر.

إن الغرب اليوم فى حيرة بالغة وقلق واضطراب شاملين وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذى يفىء إلى ظله فى جو من الهدوء والراحة والاستقرار[1].

والبشرية اليوم فى مفترق الطريق فهناك اضطراب فى الأفكار وحيرة فى الاتجاهات وزعزعة فى النظم وخواء من العقيدة أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب إلى هاوية المادية والضلال.

وليس الحال فى الشرق والبلاد العربية بأحسن من الغرب فقد انحرف الكثير عن الدين فى غير قليل من شئون الحياة[2]. لقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضارى الغربى وليس ذلك التأثير فى الجانب العلمى والصناعى والعمرانى ولكن للأسف - وفى أسوأ المساوىء - وأصبح بعضهم يقلد الغرب فى كل ما هب ودب وما من ظاهرة من الظواهر العفنة ولا موضة من موضات العصر إلا ولها فى بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة ولم يحس فى مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل والخطف والتخريب والإرهاب وتفاقم خطر الجريمة وازداد عدد المجرمين وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادى العراة وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى إلى غير ذلك.

وأخيراً لهذا وغير هذا: لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية ومذاهبهم الاقتصادية بل من كل حضاراتهم التى افتتنت بالعلم والعقل فأصبحت

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص: ٢٦.

شقية عمياء لا تبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء وانحدرت بالشباب الغربى إلى مدارك السفالة والانحطاط ليعيشوا فى حياة الجنس والخمر ونوادى العراة.

والشيوعية فى الشرق وفى الغرب قد أعلنت فشلها وسقطت بعد أن شبع الناس جوعاً، وبكوا توجعاً، وتألموا من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة، وكل شىء.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، والأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه - عند التطبيق - قوة فعالة ومؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام، شملت حياة الأفراد، وحياة المجتمعات من جميع الجوانب.

والإنسانية فى عصرنا هذا أشد ما تكون فى حاجة إلى الدين الإسلامى، فإن التقدم العلمى المادى الذى غزا الفضاء، لم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التى ينشدونها، بل زادهم تكالباً على المادة، وتنافساً جشعاً جر إلى حروب.

فالذى نرجوه إذن لإصلاح هذا العالم الذى نعيش فيه، بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعد أن ظهرت فيه فلسفات تدعو لإنكار وجود الله، والتحلل من المسئولية، وفاضل الأخلاق[1].

إنه لا شىء غير الدين الإسلامى، فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن نجد هذا الدين - كما أنزله الله - واضحاً ميسراً، خالياً من الغموض والتعقيد، سليماً من التحريف والتبديل، إلا فى الإسلام خاتم الرسالات الإلهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة والدنيا والآخرة[2].

فإلى هذا الإسلام فى عقيدته وشريعته، فى عباداته ومعاملاته، فى نظمه وأخلاقه، ندعو البشرية كلها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا**

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام وحاجة الإنسان إليه»، ص: ٢٢.
(٢) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ٢٤.

إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥).

هذا الدين لا يزال العالم فى حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر والداعى إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

obeikandl.com

دور الإيمـــان

من المعلوم أن الإيمان هو نبع الفطرة فى صدقها وصفائها. . وإذا صدق الإيمان فى القلب، كان لذلك آثاره فى عقيدة المؤمن وشعوره، وفى صلته بالله تعالى، وفى جهاده فى الحياة، فلا يقبل إلا الحق، ولا يعبد إلا الله، ولا يخشى فى الله لومة لائم، ولا يرتبط بالباطل فى قول أو عمل، بل يكون شهيداً على الناس من حوله، يرشد ضالهم، وينصح مخطئهم، ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة بأخلاقه وسلوكه، موثراً فيهم بما فى قلبه من النور واليقين، غير متأثر بما لدى البعض من باطل.

وصاحب الإيمان الصادق لا تزيده الأيام إلا يقيناً، فإن أصابه خير شكر ربه، وأدى حق الله فى نعمته، وإن أصابه شر حمد الله، ورضى بقضائه، ولا يضعف ثقته بالله شىء.

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (الحجرات: ١٥).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ (الأنفال: ٢-٤).

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل».

وكما أن الخوف من الله ومراقبة جلاله أثر من آثار الإيمان الصادق، فإن حب الله، وحب الرسول ﷺ، وحب الإسلام، كمنهج للحياة بحيث لا يربو على

هذا الحب شيء أبداً، يدل على صدق الإيمان كذلك وعمقه فى ضمير المؤمن.

ولا شك أن الإيمان الصادق العميق، يحيا به ضمير المؤمن، وتسلم به اتجاهاته.. فبينما يتخبط الملايين، فى دياجير الظلام الحالك، وسبل الضلال، ترى المؤمن بوحى من تفاعل الإيمان فى كيانه: مرهف الحس، صادق العزم، صالح العمل، لا تستذله الحياة، وما فيها، ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها.

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (الزمر: ٢٣).

فقوة الإيمان فى نفس المؤمن ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شيء، وتجعل المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه، لا يشغله عن ذلك شاغل.. ومهما اشتد البلاء فإن المؤمن لا يزداد إلا ثباتاً ويقيناً، ذلك لأن قوة الإيمان فى القلب تمد المؤمن فى كل أحواله بنور الاهتداء، وكمال الرجاء.. ذلك شأن المؤمن فى كل أموره، فى عبادته لله، وذكره إياه، وفى حرصه على مرضاة الله، مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة، وفى خضوعه دائماً لأمره، وفى كمال ثقته بالله، وصدقه معه، وتصديقه لوعده.. فهو يحيا مع الله، قولاً، وعملاً، وقلباً، وجسداً، وسلوكاً، كذلك من شأنه ألا يهادن أهل الباطل أو يلين فى مقاومتهم.

ومن المعلوم أن الإيمان ليس كلمة تقال وكفى.. وليس شعار يطرح ثم ينفذ، وإنما هو أولاً وقبل كل شيء: عقيدة وعمل، عقيدة تخالط شغاف القلوب، وتسرى مع الدم فى العروق، لا يدركها ريب، ولا يلحقها شك أبداً، وهذه العقيدة لا تكون صحيحة كاملة، ولا تكون سليمة تامة إلا إذا أتت ثمراتها الطيبة.. سلوكاً مستقيماً، وأخلاقاً طاهرة، وأعمالاً رشيدة، ومن ثم لا يذكر الإيمان فى القرآن الكريم إلا مقروناً بالعمل الصالح، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ (يونس: ٩).

وهكذا يتبين للمسلمين أن الإيمان ليس قولاً بلا حقيقة، وليس ادعاء بغير دليل أو برهان، ولقد فهم المسلمون القرآن الكريم، وتشربوه فى نفوسهم، وتمثلوه فى أعمالهم، فكانوا بذلك مثار العجب فى يقينهم الثابت، ونشاطهم الدائب، وسلوكهم الفاضل، وأخلاقهم العظيمة، وعمارتهم للأرض، وعبادتهم لله، تجاوباً بذلك كله مع حقيقة الإيمان، فدانت لهم الدنيا، وامتلكوا زمام الجاه، والسلطان، والقوة، وتبوأوا قمم المجد، وصاروا فى أسمى مراتب الحياة الحرة الكريمة.

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن تكون الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس، تحمل الأمانة، وتنشر أنوار الحق، وتأخذ بيد الناس إلى أقوم طريق، وأهدى سبيل.

وكلما كان الإيمان عميقاً فى الصدور: أحس المؤمن بذاته، وأحسن النظر إلى واجباته ومسئولياته.

وإذا كان المجتمع البشرى يموج بعضه فى بعض، تحركه أمواج عاتية من الفتن والضلال، فإن أهل الإيمان يشعرون إزاء ذلك بأمرين:

الأمر الأول: أن يتمسكوا بالحق جاهدين فى العمل به وحمايته.

الأمر الثانى: حماية أنفسهم من أن يجرفهم تيار الفتن الذى يحيط بهم.

وأمر ثالث: لضمان مسيرتهم: أن يكونوا مُثلاً حياً صادقاً لمبادىء دينهم، ليرى فيهم الناس ما يدعو إلى هيبتهم واحترام دينهم، ولتكون مثاليتهم فى حياتهم أكبر داع إلى الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران: ١١٠).

وإذا كان خير المقال ما صدقه الفعال، فإن الإسلام يوجب على الأمة أن تحمل دعوة الحق إلى الناس، وتسوسهم برفق إلى صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وإن قوة الإيمان بما تفيض على النفس من طمأنينة، وبما تعطى من الاندفاع الواثق فى طريق الحق، منفعلاً به داعياً إليه، معتزاً بما لديه، لا يحيد عنه، ولا يقصر فيه، هى أعلى ما اكتسب الإنسان لأنها صمام الأمان من غضب الله، وضمان النصر للمعتصمين بالله، وسبيل النجاة من عذاب الله فى دار الجزاء.

بهذا يحس كل مؤمن إحساساً يجعله أقوى من أن يهزم أمام باطل، أو يضعف فى مواجهة فتنة، أو يستسلم لهوى، أو يستمرىء معصية.

والمسلمون فى أمسّ الحاجة إلى هذا الإيمان الكامل، الإيمان الذى يقتضى من المؤمن أن يتخذ سبيلاً إلى الله عز وجل.. فتجىء أعمال المسلمين وفق عقيدتهم، فلا يرهبون من أحد أبداً، ولا يذعنون إلا لسلطان الله، ولا يعملون من عمل إلا وهم يريدون به وجه الله سبحانه وتعالى، يفعلون ما أمر به جل جلاله، ينتهون عما نهى عنه، يذوبون رحمة لإخوانهم المؤمنين، فيواسون الفقير، ويجبرون الكسير، ويقوون الضعيف، ويشدون العزائم، ويستنهضون الهمم، ويكونون دائماً عوناً لإخوانهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويتفجرون شدة على أعداء الإسلام، فيجاهدونهم بالقلب واللسان والمال والنفس، يفلون عزيمتهم، ويكسرون شوكتهم، ويعملون جاهدين على ألا يكون لأعداء المسلمين سبيل على المؤمنين، لا فى أنفسهم، ولا فى أرضهم، ولا فى أوطانهم.

طبيعة الحياة

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة، وقد ثبت بالتجربة أنه أمر لا بد من وقوعه بين الناس، مهما ارتقت أفكارهم، أو تقدمت وتطورت معارفهم وحضارتهم، والدليل الواضح على ذلك، ما يقع بين الأمم من الحروب العالمية، وهذا التسابق المحموم فى أسلحة الفتك والدمار والخراب، رغم ما وصلوا إليه من العلم والحضارة المادية، والتقدم[1].

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا، أو أن تخف حدتها، أو تحصر ويلاتها.. ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام، وبكل ما تنطوى عليه من قسوة، وبطش، وإخلال بالأمن والسلام، سر من أسرار الحياة، وجوهر من جواهرها، لأن الحياة هى الحركة، والحركة هى التى تحول المادة وتغيرها، بما تحدثه من احتكاك وصدام، وصراع مستمر.

إن كل ما فى الكون، من عناصر مركبة، أو بسيطة فى كفاح مستمر، بين أجزائه المختلفة، فالماء، والهواء، والحرارة، وبقية العناصر، كلها فى حرب دائمة، ومن هذه الحرب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية، التى تؤلف مسرح الحياة.

فالرياح، والعواصف، والسحب، والبروق، والرعود، والصواعق، والسيول، والأمطار، والزلازل، والبراكين، هى مظهر هذا القتال، فما من ذرّة من ذرّات الكون إلا ويجرى فيها هذا الصراع.

وحسبك أن تنظر إلى قطرة من الماء خلال المجهر، أو قطرة من الدم لترى فيها جيوشاً جرّارة، فى كر، وفر، واقبال، وإدبار، يلتهم بعضها البعض الآخر، بعد أن يصرعه.

---

(١) الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٧٩، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

فإذا شئت أن ترى ذلك مكبراً بالعين المجردة، فما عليك إلا أن تلقى بنظرة على الغابة، حيث تغص بالحيوانات الكاسرة، والطيور الجارحة، التى لا تنفك فى حرب متواصلة، ولا تفتر لحظة، أو تهدأ، ابتداء من الدودة الصغيرة، إلى الفيل الضخم. . ولو نظرت إلى قاع المحيط لوجدت مثل ذلك جيوشاً لا يدركها الحصر، تتباغى، وتتقاتل، وتتصارع، حول الحياة والموت[1].

وما كان الإنسان ليشذ عن هذه القاعدة، وهو أرقى صور الحياة وأكملها غير أن العقل والأديان، قد نظمت قواه، وحدت من غرائزه، التى تدفعه للقتال دائماً أبداً. . لكنها لم تقض على هذه الغريزة، وإلا لقضت على الحياة فى أساسها، فبقيت غريزة القتال كامنة فى النفوس، لا تلبث أن تحتدم، متى جدت دواعيها، وتهيأت أسبابها، وما أكثر الأسباب والدوافع التى تفضى إلى المنافسة بين أبناء البشر[2].

والإنسان حين يفقد سلامه النفسى فى داخله، يفقد سلامه الاجتماعى، والعالمى فى خارجه، ويعدم الراحة، والهدوء، والانضباط، ويتلفت عن يمين، وشمال فلا يرى إلا جيوش الأهواء والنزوات، وفيالق الأثرة، والمطامع تدق طبولها، معلنة على قراره الذاتى، وسلامه النفسى. . . حرباً ضروساً، لا تلبث إلا ريثما يضيق بها ميدان وجدانه، ومجال مشاعره، لتمد ألسنتها، حامية الوطيس، مشتعلة الأوار، خارج هذا النطاق، لتأتى على الأخضر واليابس، من علائق الأفراد والجماعات، والأمم، ومقدراتها، وممتلكاتها، ومناطق نفوذها، وما سطرته يراع الإنسانية من معالم الحضارة، ومشاهد التقدم، ووسائل المدنية، التى ترمى إلى ترقية الحياة، وتهذيبها.

والويل كل الويل يوم يذر قرن الفتنة، وتشرئب الأهواء النافرة، والنزعات الشاردة، والمطامع الفاغرة، معلنة إصرارها على طمس الحق وأهله.

لهذا حرص الإسلام البالغ على أن يتصف أهل الإيمان بالقوة وعلى أن

---

(١) الأستاذ أحمد حسين: «الحرب على هدى الكتاب والسنة»، ص: ١١ ط: المجلس الأعلى بالقاهرة، ١٩٧٤م.

(٢) المصدر السابق، ص: ١١.

يكونوا دائماً على استعداد لمواجهة أهل الباطل مهما تكن التضحيات فى النفس والأهل والمال.

والتحفظ الوحيد الذى وضعه الإسلام على قوة المسلمين هو أن تكون قوتهم فى خدمة العدل والسلام وأن تنأى عن البغى والعدوان.

قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج: ٤٠).

ذكر القرطبى فى تفسيره: أنه لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات، من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة.. فالجهاد أمر مقدم فى الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات»[(١)]. حقاً إن الإسلام حين يضطر إلى القتال فإنما يمارس أشرف أنواع القتال وأنبله، ذلكم الذى لم ولن تعرف الدنيا له عدلاً ولا نظيراً من قريب أو بعيد من حيث أسبابه وبواعثه وأهدافه وغاياته وملابساته وظروفه...

إن أسباب القتال جميعاً تلتقى عند درء العدوان ورد الهجوم واسترداد الحق السليب، والكرامة المهيضة والأمل الشريد واقتلاع جذور الظلم وكسر حدته وانحسار موجته.. ولولا أن يغرى الله به المؤمنين لاعتلت المفاهيم، واختلت الموازين واضطرب أمر الحياة ولخلا وجهها من الحق وجنده[(٢)].

وتلتقى أيضاً بواعث القتال عند درء الفتنة إذا ذر قرنها واستيقظ شرها فإن طاقات النفس محدودة وقدراتها تحت مطارق الفتن وصرف الهوان قاصرة، يخشى حالئذ أن تلين أو تهون أو تتشتت فتعطى خصمها الدنية فى ذاتها ويقينها.. إذ التلويح والتلميح والمساومة والإلحاح والرغبة والرهبة من أخطر الأساليب التى تمس أغوار النفس فى ظروف العسف والقهر والبغى والطغيان.

---

(١) القرطبى: «أحكام القرآن»، ج١٢، ص: ١٧٠، القاهرة.

(٢) وزارة الأوقاف، مكتبة الإمام، ج١٤، ص: ١٢ الأوقاف ١٩٧٣م.

فيلين عودها ويتبخر ريها وتأتى على ما فى قرارها من يابس وأخضر. . وما لم يتدارك هؤلاء تحت العذاب والفتن ومعاول الهدم فإنهم لا يلبثون إلا ريثما تضيق على أعناقهم قبضة الفتن فإذ هم ساقطون. إن القتال حينئذ حبل إنقاذ ينقذ المحطومين ويمنع المتآمرين من التوسع والمزيد ولا ملام فى هذا فمن أشعل الفتنة صلى نارها ومن سل سيف البغى صرع به.

وإن القتال فى الإسلام كما يكون لأهل العدوان والاضطهاد والفتن يكون أيضاً لمن يهددون الأمن ويقلقون السلم، ويكون لمن يدسون الدسائس ويزرعون الوقيعة ويبثون الخدع، وينشرون الأراجيف، وينفثون السموم، ويرجفون لأساليب الهدم والدمار، من المذبذبين، وذوى الضمائر الفاسدة والذمم الخربة، وأهل النكث والخيانة، ومن لديهم الاستعداد إلى الانسلاخ من كل مبدأ، والتلون بكل لون وتغيير جلودهم، حسب الملابسات والظروف[1].

وما كانت أسباب القتال فى الإسلام راجعة يوماً (ما) إلى عدوان منه أو بغى أو تسلط أو قسر أو إكراه وما كانت أيضاً معاداة ولا باطلاً. . وإنما كانت لأمر كان معه على العكس. . فالمسلمون كانوا على مر العصور ضحايا القسر والتعذيب والطغيان والقهر، لذا لجأ المسلمون لمحاربة القوة لأنه لا تحارب القوة بالحجة ولكن بمثلها. فلا يفل الحديد إلا الحديد. فكانت حروبه جميعاً لالتقاء هجوم مبيت من قبل طغاة متجبرين لا يألون جهداً فى مباغتة الإسلام بالهجوم عليه والإيقاع به وفض الناس عنه.

إذن حتمية المواجهة تستدعى من المسلمين - أمة أو مجموعة من المجتمعات- ضرورة التهيؤ، بالاستعداد وليس شرطاً أن ينتظر المسلمون حتى يروا إمارات السوء والشر والعدوان من عدو معروف لهم، فيبدأون فى أخذ وسائل الدفاع. . وإنما عليهم أن يدركوا طبيعة الحياة فى هذه الزاوية الهامة التى تحكم بوجود الصراع، تجربة وتاريخاً واقعاً بين الناس فيبذلوا قصارى جهدهم فى إعداد القوة حتى ولو لم يكن أمامهم عدو معروف ومعلوم لهم.

---

(١) المصدر السابق، ج١٤، ص: ١٣ بتصرف.

وإلى هذا المعنى يوجه القرآن الكريم المؤمنين فيقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

فالله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالاستعداد للحرب التى لا بد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة.. ويكون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إعداد المستطاع من القوة، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان. والواجب على المسلمين فى هذا العصر صنع المدافع والطيارات والدبابات وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع الرسول ﷺ فى غزوة «خيبر» وغيرها. روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع الرسول ﷺ وقد تلا هذه الآية[1] يقول: «ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاثاً. وذلك أن رمى العدو على بعد بما يقتله، أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك.

وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدافع والبندقية ونحوها. فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة فى عصره ﷺ[2].

والأمر الثانى: مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها.. إذ هى مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد..

والحكمة فى هذا: أن يكون للأمة الإسلامية جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية، ومن الفرسان المرابطة، لترهبوا أعداء الله الكافرون به..

فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول:

---

(١) آية سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾.

(٢) الدين الحياة، نظام الحرب فى الإسلام، ص: ٦، ط: وزارة الأوقاف.

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم إن الدم المغـــير يحـرســه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمون من وجوه:

١ - يجعل أعدائهم لا يعينون عدواً آخر عليهم.

٢ - يجعلون يؤدون الإلتزامات المطلوبة منهم.

٣ - ربما حملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

والخلاصة: أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء، يرهب كذلك الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء ﴿**وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾: فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعاً ويمنعهم من الإقدام على القتال وهذا ما يسمى فى العصر الحديث: «السلام المسلح»[1].

ولعل الباحث يعرف أن إعداد القوة فى الإسلام والتى جاء الأمر بها ليس المقصود بها إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء.. لأن فريضة الجهاد فى الإسلام لا تنتظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة للعدو لأن ذلك قد يطول..

ولو انتظر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى حتى تتكافأ قوتهم وقوة عدوهم ما قامت للإسلام والمؤمنين قائمة.

إنما القلة المؤمنة بالله، والمعتزة بعقيدتها، اعتزازاً يفوق كل اعتبار استعدت بقدر ما استطاعت ثم خاضت المعركة فكان فيها الفرقان.

والآية الكريمة التى أمرت بإعداد القوة فيها كلمة «ترهبون» وقد جاءت بصيغة الفعل المضارع وتشير إلى الغرض من إعداد القوة وهو إلقاء الرهبة فى قلوب أعداء الله، وأعداء المسلمين المعلومين منهم للمسلمين والمجهولين.. وكم للإسلام والمسلمين من أعداء لو يفقه المسلمون.

والآية الكريمة «وأعدوا» على اختصارها جمعت أنواعاً للجيوش التى تتلاءم مع كل عصر وزمن.

كالإعداد المادى والإدارى والفنى والمالى والتخطيط والدراسة الموضوعية لمقتضيات الأحوال.

---

(١) الشيخ المراغى: «تفسير القرآن الكريم»، ص: ٢٥-٢٦، ط: القاهرة.

ولقد فرض الإسلام على الأمة الإسلامية الإعداد لكل ما تشمله كلمة «إعداد» من معنى وأن تبذل الأمة أقصى الجهود الصادقة. ولم تغفل الآية الإعداد وقت السلم ووقت القتال حتى تكون الجيوش الإسلامية أشد فعالية وأكثر قدرة قتالية.

والقتال فى الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصى. ليتمحص خالصاً لله لتحقيق كلمة الله وإقامة العدل، ابتغاء رضوان الله[1].

قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ (آل عمران: ١٤٢).

والإسلام فى هذه الآية الكريمة يربط هذه الغاية المرجوة - دخول الجنة - بالسلوك العملى فى الحياة الدنيوية، بحيث تصبح المقياس والميزان الذى يدل على صحة الارتباط بالدين نفسه.

قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (التوبة: ١٤-١٦).

فكلمة «بأيديكم» فى الآية تنفى تماماً معانى التواكل، والإهمال، والكسل، وتؤكد خط الجهد البشرى فى المواجهة لأهل الظلم والباطل، كما تفيد المسلمين أنه لا أمل لهم إلا فى أنفسهم. فكلمة «أم حسبتم أن تتركوا» فى الآية، فيها من الدلالة الواضحة على أنه لا يجوز أن يتصور أهل الإيمان قيام الحياة ونظامها، على الخلو من معاناة الجهاد، والصبر، والبذل، والتضحية. وإن أى تصور يجنح إلى تجربة الحياة من غير هذه الخصائص، وهم باطل لا بد من محاربته حتى يكون المؤمن مستعداً استعداداً واقعياً، يتمشى مع طبيعة الحياة[2].

والله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يكون حملة الإسلام، وحماة الدعوة الإسلامية من الجامدين الكسالى الذين ينتظرون النصر لمجرد أنهم مسلمون.

---

(١) أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٢٨، ط: دار اللواء. الرياض: المملكة العربية السعودية.
(٢) وزارة الأوقاف، نشرة رقم ٨٨ من سلسلة الدين والحياة، ص: ٨، ط: وزارة الأوقاف.

والأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى استيقاظ كل الخلايا فيها، واحتشاد كل القوى، وتوفر كل استعداد، وتجميع كل الطاقات، كى يتم النمو، ويكمل البناء، لأن تحركات الأعداء لا تتوقف، وتكالب الأعداء، يزداد شراسة وسعاراً. . ولا جرم فإن الحق الأعزل ضائع[1].

ولما كانت ظاهرة الصراع تتعلق باستمرار الحياة ذاتها، كان للاستعداد لها، والاعتراف بها، المكان المقدم فى الإسلام. . ولذلك جاءت مقاييس التفاضل بين الأعمال، لتضع الجهاد فى قلب المؤمن ونفسه، فى المكان المتفوق على غيره من سائر الأعمال. . قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ (النساء: ٩٥-٩٦).

والحق أن الذى يستعد استعداداً صادقاً للبذل والتضحية والجهاد، تسهل عليه سائر العبادات. . لذلك فإن المؤمن فى عملية الجهاد أو الاستعداد لها، يتجرد عن كل شىء، لله سبحانه وتعالى، وكأنه عقد مع الله صفقة أعطى فيها وبها لله كل شىء، ليفوز بجنة عرضها السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة: ١١١).

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وهذا يعنى أن أسلوب الجهاد ضرورة للحياة الكريمة، وأى تقصير فى التهيؤ والاستعداد له، يعرض صاحبه لنقصان فى الإيمان، وفساد فى العقيدة. فعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه «بالغزو» مات على شعبة من النفاق»[2].

---

(١) أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨٥.

(٢) المنذرى: «الترغيب والترهيب» ج٢، ص: ٢٥٣، والحديث رواه مسلم وغيره.

وقد روى الطبرانى عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[1].

والخلاصة: التى نفهمها من المنهاج القرآنى والنبوى، أخذاً من الآيات والأحاديث التى جاءت فى ميدان الجهاد والقتال.. أن واجب الأمة الإسلامية أن تهيىء نفسها بصفة دائمة ومستمرة إلى ضرورة الاستعداد.. حيث أن هذا الاستعداد والإعداد جزء من العقيدة، وركن من العبادة، وقد ربط الله بتحقيقه سعادة المسلمين فى الدنيا ونجاحهم فى الآخرة.

وإن الأمة الإسلامية تملك من الطاقات البشرية، والعقول المفكرة، والإمكانيات المادية، والمواقع الاستراتيجية، ما يمكنها من أن تكون أعظم قوة فى الأرض.. لا لتضرب فى عتو وتجبر، ولكن لتحفظ نفسها ومجتمعاتها، وتقيم العدل بين الناس، وتنشر الأمن والاطمئنان.

(١) المصدر السابق.

obeikandl.com

الحوار الحضارى ضرورة إنسانية

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار. ومفهوم الحضارة. حتى نتعرف على حوار الحضارات وننطلق لرؤية واضحة تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان، وحاجة الإنسان إليه.

والحوار: الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء، يقال: حار إلى الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة: رجع عنه وإليه. وفى الحديث: «من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه» أى رجع إليه ما نسب إليه. والمحاورة، مراجعة المنطق، والكلام فى المخاطبة[1]. قال تعالى: ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾، أى وهو يراجعه الكلام ويجادله[2].

والتحاور: التجاوب. لذلك كان لا مندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب، ولا بد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة فى ذهن المتكلم. لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفى هذا التجاوب توضيح للمعانى، واغناء للمفاهيم يفيضان إلى تقدم الفكر[3].

وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس. سمى جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقياً: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلّمة. وغرضه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان[4].

والجدل أصلاً هو فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: «الجدلى هو الذى يحسن السؤال والجواب، وغايته الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول، للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادىء.

---

(١) ابن منظور: «لسان العرب»، ج١، ص: ٧٥٠، ط: دار لسان العرب، بيروت.

(٢) سعيد حوى: «الأساس فى التفسير»، ج٦، ص: ٣١٨٤ ط: دار السلام، القاهرة: سنة ١٤٠٥هـ.

(٣) انظر حسين حمادة: «الحوار القرآنى»، مجلة المعارج، المجلد الأول، ع٨، ص:٣٦، بيروت: سنة ١٤١٢هـ.

(٤) المصدر السابق، ع٨، ص: ٣٦.

واقتبس المحدثون عن أفلاطون. فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعانى العقلية، ومن المعانى الشخصية إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم، ولا يدون فى الكتب. بل يكشف بطريق الحوار[1]. ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حوار الكائنات. وإن جامدة ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض كما هى طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة. إنما قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة والبسمة المشرقة والحس الخافق، والدورة المقبلة، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

ومن البداهة القول بأن الإنسان كائن عقل واجتماع. كائن علاقة وحاجة؛ ومن البداهة القول أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها اللقاءات المتحاورة؛ ليكون المجتمع على بيّنة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود. كما الكون بقوانينه وأنظمته التى تجعله يحفظ بعضه البعض، ويستمر بعضه ببعض[2]. . وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

أما الحضارة؛ فإنها مأخوذة من الحضر، والحضر خلاف البدو؛ والحاضر خلاف البادى؛ وفى الحديث: «لا يبع حاضر لباد» الحاضر المقيم فى المدن والقرى؛ والبادى المقيم بالبادية. ويقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية. والحضارة - بكسر الحاء - الإقامة فى الحضر، وكان الأصمعى يقول: الحضارة بالفتح. قال القطامى:

فمن تكن الحضارة أعجبته . . فأى رجال بادية ترانا

والحضر والحاضرة؛ خلاف البادية. وهى المدن والقرى والريف. سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار[3].

(١) المصدر السابق، ع٨، ص: ٣٧ بتصرف واختصار.
(٢) المصدر السابق، ص: ٣٧.
(٣) ابن منظور: «لسان العرب»، الجزء الأول، ص: ٦٥٨.

إذن أهل الحضر يوصفون بأنهم أهل القرار كما يقال: قرارى للحضرى الذى لا ينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ فى مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم «أهل المدر» وهو قطع الطين المتماسك. أو أهل الحجر لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافاً لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز[١].

ومفهوم كلمة «الحضارة» مفهوم تطور مع الزمن لا سيما فى تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر، منذ كانت بادية ومنذ كان حضر. ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبدالرحمن بن خلدون[٢]. بل إن هذا العالِم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية.. ويرى أن الحضارة هى النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البداوة، ويضفى على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة، وإدارة شئون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية[٣].

والحضارة فى فكر ابن خلدون «طور طبيعى أو جيل من أجيال طبيعية فى حياة المجتمعات المختلفة وأنها غاية العمران»[٤].. ويقول: «إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها. إنها أحوال زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، ويقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه، والمهرة عليه»[٥].

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة فى العصور المتأخرة قد امتد إلى ألوان من

---

(١) الدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص٩، ط: الدار السعودية، ١٤٠٢هـ.

(٢) عبدالرحمن بن خلدون، توفى سنة: ٨٠٨هـ-١٤٠٦م.

(٣) الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٧، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص: ٢١٠-٢١٣، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت: ١٩٦٧م.

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص: ٦٥٦-٦٥٧.

المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره، وفى البيئة العربية، وفى انتقالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية إلى الحضر. إن لفظ الحضارة فى مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة، قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدى.. ولذا جاء فى المعاجم الحديثة: أن الحضارة هى الرقى العلمى، والفنى، والأدبى، والاجتماعى، والاقتصادى فى الحضر. وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هى: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية. ولهذا كانت الحضارة هى الخطة العريضة كماً وكيفاً التى يسير فيها تاريخ أمة من الأمم. ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة[1].

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع كان فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناسْ عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم[2].

والحضارة باختصار شديد: هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف. ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومى[3].

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨.

(٢) البرت اشفيتسر: «فلسفة الحضارة»، ترجمه عن الألمانية الدكتور عبدالرحمن بدوى، ص:٥، ط: دار الأندلس، بيروت.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٨.

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة. ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة؛ كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفاً ذكره العلامة الفرنسى «جورج باستيد» جاء فيه: أن الحضارة هى التدخل الإنسانى الإيجابى لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر فى الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاصاً للعناء البشرى[١]. فالسلوك الإنسانى الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان. كى يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل فى طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام، والشراب، والدفء، والاستقرار، والأمن؛ وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات[٢].

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية، فى جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضارى هو: جواب الإنسان على التحدى المواجه له؛ تحدى الطبيعة المادية من جهة، وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدى الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة؛ ويأتى هذا الجواب الإنسانى على التحدى فى صور نشاط متعدد الجوانب؛ كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادى من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها. ومن مجالات الحضارة: العقائد والعوائد والآدب الشعبى وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه[٣].

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى. وغالباً ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة[٤].

(١) جورج باستيد: «كتاب المدينة»، ترجمة: عادل العوا، ص: ١٢، ط: دمشق.

(٢) انظر المصدر السابق، ص: ١١٧، والدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص: ١٦.

(٣) انظر الدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص: ١٧.

(٤) انظر الدكتور محمد المحاسن عصفور: «معالم حضارات الشرق الأدنى القديم»، ص: ٢، ط: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة. أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هى وقف على جماعة من الناس. لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية قد تتشابه فى مظاهرها، وفى عناصرها، وفى أسلوبها، ولا سيما إذا تعايشت فى جهات متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها؛ وينتفع بعضها من بعض[1].

ولقد تواجدت حضارات مختلفة فى الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدى إلى تقدمها عند الكثير.

وتشكل الحضارة مجموع الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهى تتجاوز الثقافة وتغلفها. وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أوجدها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، فى جو واسع جداً، ومكان جغرافى طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشاكل، التى يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضى، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود. وهذا العامل عنصر غير مادى، وهو ضرورى لكل حضارة، لكى تولد، وتحيا، وتتطور. وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار، وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب، الذى ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية. وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم من أجل الصفات الجمالية فى الحضارة.

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والتماثيل والكتابات، ذات أهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة. ويأتى بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية كفن الطبخ، وطريقة التغذية، وصناعة الفخار، والأوانى، والأدوات المنزلية، والمفروشات، والمنشآت، والأدوات والآلات والأسلحة، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضارى الإنسانى، يتخذ طابعاً واحداً. لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان نفسه. فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها. فتنتج للإنسان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية.. وبذا فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور، تكون كلاً متماسكاً. يترابط بنيانه العضوى كحلقات السلسلة الواحدة، التى لا تنفصم الواحدة عن الأخرى.

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى. أو أنها لم تتفاعل معها. ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلى والفكرى للأمة. وتعطى ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر، والنشاط الإنسانى المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض[1].

ولا يخفى أن النشاط العقلى، والإنتاج الحضارى، لا بد وأن يستند إلى أدلة ملموسة والأدلة فى هذه الحالة. إما مادية مثل: النقوش والمعابد والآثار والمنشآت. وكل شكل الإنتاج التكنولوجى. وإما فكرية مثل: الوثائق والمؤلفات والكتب والنظريات العلمية. والآراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية. فإنها ميدان اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار، ودارسيها. فدراسة هولاء تفسير الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية التى تميز حضارة من الحضارات عن غيرها. على حين أن الفلاسفة ومؤرخى العلم يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكرى، والنظريات والآراء وتطور الأفكار التى يقومون على تحليلها ونقدها محاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقى للوقوف على الفلسفة الكامنة فى باطن الفكرة نفسها.

(١) الدكتور ماهر عبدالقادر محمد: «المشكاة»، ص: ١٦٦، ط: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.

الإســلام والحضارة

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله فى الأرض. قال تعالى: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾. (البقرة : ٣٠).

وقد فضل الله الإنسان وكرّمه. كما وضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾. (الإسراء : ٧٠).

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة. فهى حماية إلهية للإنسان، تنطوى على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقة. وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية. التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾. (الأحزاب : ٧٢).

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً. فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾. (الجاثية : ١٣).

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان[١].

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون. فلا يجوز له أن يقف منه موقفاً غير اللا مبالاة. بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً. وإيجابيته تتمثل فى درسه، والنظر فيه، للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير.

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: «دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى»، ص:٩، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة.

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى وفى الوقت نفسه، إلى الرقى الروحى[1] والحضارى.

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها: إنسانياً، وخلقياً، وعملياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم. فإن المجتمع الإسلامى - وهو المجتمع الذى يطبق شريعة الله فى كل جوانب الحياة - هو وحده المجتمع المتحضر. والمجتمع المتحضر[2] هو الذى تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التى تقوم عليها. هى السائدة فيه. وهذه القيم هى التى تنمى خصائص إنسانية الإنسان، وهى التى تميزه عن غيره من المخلوقات[3].

وهذه القيم إنما هى قيم إنسانية ذات ميزان ثابت. وهى مقررة فى الشريعة الإسلامية منذ جاءت. وما على الإنسان إلا أن يمضى فى بنائها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يقيمها حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت أم زراعية. فالمهم فى كل الأحوال. هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدى إلى التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، فى كل مكان، وفى كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهى كثيرة، ومتنوعة. لأنها فى كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة فى شريعة الله[4].

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشىء الحضارة المناسبة لهذا المجتمع

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الدكتور على أحمد مدكور: «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى»، مجلة الدارة، ع٤، ص:٥٢، السنة:١٤، السعودية: ١٤٠٩هـ.

(٣) سيد قطب : «معالم فى الطريق»، ص: ١٣١-١٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص: ١٣١.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية فإن التخلف الحقيقى فى - مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر - هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط وتسخير إمكانات العلم غير المحدودة فى نشر الفوضى والعادات غير الخلقية، ولا بد من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية وفى خدمة الإنسان بغى أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم فى مفهوم المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها بل التلطف مع الطبيعة والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها[١].

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشىء حضارة فإن هذه الحضارة التى دعا إليها الإسلام تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية والنفسية والمادية والنصوص الإسلامية التى تعلن هذه الحقائق كثيرة منها:

- عن أبى هريرة - رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[٢].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[٣].

ولا يخفى: أن البحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى يجد أنها تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ حيث كان البابليون والآشوريون والفينيقيون والمصريون وغيرهم ممن أسهموا فى الفكر الإنسانى وكان لهم تمايز حضارى[٤].

---

(١) الدكتور على أحمد مدكور: «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى»، مجلة الدارة، عدد: ٤، ص: ٩٩، ١٤.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) راجع الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ٧٨، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ولعل نظرة فاحصة إلى الأمم مثل الفرس والصين والهند واليابان. . . ستفضى بالباحثين إلى الاجتماع، على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية وطريق العيش والفلسفة والحياة وفى النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارة. .

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام - بعد الإحياء لهذه المواريث - كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره[1]، حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة. ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[2].

إذن: لا بد من التصور الذى يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى العالمى الإنسانى وجدنا فى هذا الفكر: «ماهو مشترك إنسانى عام»، لا يختص عنها بحضارة بذاتها وفى هذا الفكر أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى وبين ما هو خصوصيته حضارية. وإنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التى هى بنت الدليل، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد، وأجناس وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات بل هى واحدة على المستوى الإنسانى، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هى الأخرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات،

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٩ بتصرف.

(٢) انظر الدكتور توفيق الطويل: «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية»، ص: ١٥١، ط: مكتبة التراث الإسلامى، مصر ١٩٩٠م.

فعلوم مثل الرياضيات بفروعها ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها أى: «فكرها العلمى» سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات[١].

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها على نحو ما، وإلى حد كبير. العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للاقتباس - مع التطويع - والتمثيل والاستلهام.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغنى عنها حضارة مهما سمت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر وهذه العناصر الخارجية تأتى بطريق الاقتباس الإرادى المباشر المقصود. والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء والاستعارة ليست عاراً وإنما هى فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هى ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها[٢].

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم.

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ١٦.

(٢) انظر الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ١٥٢، ط: عوبرات ١٩٨٢، بيروت، فرنسا.

ففى الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والأراميين وجزر بحر إيجه.

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفى الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفى الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج فى حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة، وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج[1].

فى هذا الجو جاء الإسلام. إنه لم ينتشر فى فراغ، فالأمم التى صادفها أو اتصل بها فى حركة المد الكبيرة أو تلك التى اعتنقته ودانت به أمم عرفت حضارات شتى وثقافات متنوعة ومرت بتجارب روحية وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ومن هنا كان التأثير والتأثر. ومن هنا كان التفاعل والاخصاب وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند وحكمة فارس وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم وتشعبت آراءهم وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والاصهار وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات، وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صيغة فريدة. وتنتج عن ذلك كله مزاج فكرى واجتماعى وروحى جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها[2].

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٦٤.

وكلما ذهبنا نبحث فى حضارات الأمم وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضارى الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو: «مشترك ولما هو خاص قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام» وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات - وهو معلم التاريخ الحضارى للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى - هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم التميز بين ما هو مشترك إنسانى عام تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون فى حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير حضارتهم، لفرز ما يقبل منه ويتمثل، من ذلك الذى يرفضونه، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية[1].

ويستطيع الباحث فى الحضارات، أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء وفق «ما هو مشترك إنسانى عام»، وما هو «خصوصية حضارية».

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والهندية، واليونانية.

والمثال الثانى: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

(١) الدكتور محمد عمارة، «الغزو الفكرى، وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٥ بتصرف، ط: الأزهر ١٩٨٨م.

obeikandl.com

لقاء الإسلام بحضارات الأمم

أما المثال الأول الذى يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل، يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ أخلاء من أى تفتح عقلى، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت، كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن، فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى، وتحرك عملى وعلمى.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التى التقت مع المسلمين، لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها، مسترشدين بالمنهج العلمى العام، الذى رسمه للمسلمين مصدرا التشريع الإسلامى العظيمان: القرآن والسنة.. كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التى رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم صراطاً المستقيم[1].

إن الدولة الإسلامية الجديدة التى عملت على نشر الإسلام فى الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكى تعطى.. إنها لم تقبل التراث الفكرى اليونانى وغير اليونانى، إلا لكى تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة.

(١) عبد الرحمن حبنكه الميدانى: «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها»، ص: ١٢٢، ط: دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ.

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود، وأصحاب الحضارات القديمة، يغترفون منها ما كان فى وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التى التهموها قد تحوّلت على أيديهم لتكون غذاءاً جديداً[1].

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها فى عملية البناء، كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها، و«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، والخلاخيل، بل لبناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون فى كل شىء، ويبحثون فى كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، ينقبون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضى، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم، ويبنون الجديد، وكانت لهم جولات وجولات فى كل ناحية من نواحى الحياة، فى العلم، وفى الحكمة، وفى الأخلاق، وفى الفلسفة، وفى الطب، وفى الهندسة، وفى الجغرافيا، وفى الفلك، وفى الصناعة، وفى الكيمياء، وفى الصيدلة، وفى الزراعة، وفى التاريخ، وفى القصص، وفى اللغة، وفى الحيوان، وفى الفيزياء، وفى الأحجار، وفى البحار، والمعادن[2].

ولم يدخر المسلمون جهداً فى البحث عن تراث الأمم السابقة، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على اليونانية القديمة، والفارسية، والهندية، وغيرها من الثقافات التى نما إلى علمهم أنها موجودة فى أى صقع أو قطر[3].

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذى قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً باللغة العربية، فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة،

(١) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ١٦٧.
(٢) أنظر: الدكتور توفيق الراعى: «الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية»، ص: ٣٨٩.
(٣) المصدر السابق، ص: ٣٩.

والعلوم، والفنون المختلفة، التى سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادىء الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة، التى ورثها المسلمون عن الشعوب، ذات الحضارات العريقة[١].

لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية :

وليس هناك شك فى أن الفتح الإسلامى للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية فى إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضارى واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامى[٢].

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامى إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسى يستطيع أن يميز بين ما «قبل» وبين ما «رفض» من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الخليف عمر بن الخطاب وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى فى الدولة الإسلامية: النيل، ودجلة والفرات. ولم يتردد عمر بن الخطاب فى تبنى النظام الفارسى فى ضريبة الأرض الزراعية والذى كان يسمى «وضائع كسرى» وظل سائداً ومعمولاً به حتى فى ظل الدولة العباسية.

فأنت ترى أنه فى عهد عمر بن الخطاب، تم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية فى طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية. ولكن المسلمين الناشرين للإسلام، فى فارس كانوا حذرين كل الحذر وشديدى الرفض والمقاومة لكل ما هو «خصوصية حضارية» فارسية، تتعارض مع معايير الإسلام، وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهى نمط متميز فى الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية فى نظام الحكم وفلسفته السياسية التى كانت ترى رأس الدولة «كسرى» ابناً للإله - هورا - مزدا» يحكم باسمه، ونيابة عنه زاعماً أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين[٣].

(١) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ٢٢١.
(٢) الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٦.
(٣) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٧-٢٠٨.

obeikandl.com

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ميراث الفرس فى النظام الطبقى المغلق. لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام، فى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات.

والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام فى الملل والنحل وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية، يدركون المقاومة الباسلة، التى ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم[١].

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العلمية ولعلوم التمدن العلمى كان الحذر بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة للمعايير الإسلامية، إن فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين[٢].

(١) المصدر السابق، ص: ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق، ص: ٢٠٩.

obeikandl.com

لقاء الإسلام بحضارة الشام، ومصر، وبلاد الشمال الإفريقى

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التى كانت تنتظر الإسلام. ونشأت الحضارة الإسلامية فى كنف القرآن الكريم، والسنّة النبوية، وكانت الأمم الداخلة فى الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء وبدت أعظم مظاهر هذا المزج فى النظم الاجتماعية، والآراء العقلية. واشترك الدعاة إلى الإسلام بأهل البلاد التى فتحت صدرها للإسلام فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة. وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية، والطبائع العقلية. وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية. ولهذا أسهمت فى نشأة الحضارة الإسلامية.

وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقى، كانت ذات ميراث بيزنطى. استفادت منها حضارة الإسلام فى «تدوين الدواوين»، وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ: أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، سعى إلى مدرسة الإسكندرية يتعرف على ما فيها من تراث.

وقد كتب إلى أبيه معاوية، يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد. فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن يقول فيها:

أيا راكباً نحو الشام عشية ... يومٌ دمشقاً قف فحمل كتابياً

وبلغ يزيد حين يتلو رسالتى ... وقل خالداً قد نال ما كان راجيا

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة ... وزتهما من بعد طول عنائيا

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسة إلى الفضة والذهب[1].

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ٨١ ط: دار اللواء، الرياض: ١٤٠١هـ.

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية، وفنون التمدن العلمى. والتى سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع حضارة مصر والشام، وتبنت ما فى هذه المجتمعات من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية. فإنها فى الوقت نفسه حاربت «الغنوصية» والهلينية فى الفلسفة، وعارضت عقائد ومذاهب المسيحية التى أخرجتها الروح الهلينية، عن نقاء عقيدة التوحيد.

لقاء الإسلام بالحضارة الهندية:

الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب، مختلفة الأجناس، والمذاهب الدينية، والفكرية، والاجتماعية. وجهود الهند فى التعليم قديمة جداً. وأكثر نتاج الهند الفكرى، كتب باللغة السنسكريتية. وهى معروفة الأصول مما ساعد على معرفة جميع نواحى الثقافة الهندية.

والباحث فى الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا فى جميع العلوم القديمة. وأشهر علوم الهنود:

- الفلك والرياضيات. وأقدم الرسائل الفلكية هى كتاب «السد هانتا» حوالى ٤٢٥ ق.م. ثم أبحاث «أريابهاتا» أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذى علل الكسوف والخسوف فى حركة الأرض حول الشمس. أى قال بدوران الأرض حول الشمس، وشرح كروية الأرض فى دورتها الحيوية حول محورها. كما عرف هذا الرياضى النظام العشرى.

- الفيزياء والكيمياء: وجدت فى الهند مذاهب فيزيائية مختلفة. وقال بعضهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد، وأن الشمس مصدر الحرارة فى العالم. وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة، تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندى والصناعة الهندية. وكان الرومان ينظرون إلى الهند، كأمهر أمة فى الصناعات الكيميائية مثل: الصباغة، والدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

– الطب. وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب. وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمفاوى، وأنواع العضلات وحركاتها، ويعرفون تجبير العظام، ويفهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون فى ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١].

ولا شك أن تفاعلاً حضارياً فى مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره فى محيط الحضارة الإسلامية من واقع تأثرات التمازج والمخالطة. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب: «السد هانتا» السند هند[٢]. وفى أيام أبو جعفر المنصور، قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم «السد هانتا» السند هند باللغة السنسكريتية. وقد كلف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الفزارى بتعريبه. ففعل. وقام الخوارزمى بتصحيحه ومراجعته[٣]. والمسلمون استفادوا من الأرقام عند الهنود. فهذّبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية. وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٤].

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية، أخذ ما يتناسب معه، وترك ما لا يتفق مع مبادىء الإسلام، مما هو خصوصية حضارية. فالبيرونى ٣٦٢-٤٤٠هـ = ٩٧٣-١٠٤٨م الذى نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عاماً عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها. والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد.. البيرونى هذا يعلمنا أن أسلافنا، ميزوا بين العلوم الطبيعية، والعملية، والتجريبية، التى أخذوها وطوروها. وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التى رفضوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامى، ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام[٥].

---

(١) أنور الرفاعى: «الإسلام فى حضارته ونظمه»، ص: ٥١١-٥١٢، ط: دار الفكر ١٣٩٣هـ.
(٢) الدكتور مصطفى الشكعة: «معالم الحضارة الإسلامية»، ص: ١٣٠، ط: دار العلم للملايين، بيروت.
(٣) فيليب طرازى: «خزائن الكتب العربية فى الخافقين»، ج١، ص: ٥٠، ط: بيروت.
(٤) الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ٩٤، ط: دار اللواء بالرياض ١٤٠١هـ.
(٥) انظر البيرونى: «تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة»، ص: ٨٠، بتصرف.

لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية :

يكاد يكون معروفاً أنه: ليس فى الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية، لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية، والمصرية، والفينيقية، والفارسية، ثم أضافت إليها آثاراً فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادىء خلقية سامية، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره.

لا شك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية، تأثيراً فى تكوين الحضارات. ولكن هذه الأسباب لا تكفى لتفسير ما تميزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع، والابتكار.

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحصوها أعمق تمحيص. فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا منها ما استبقوا. ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب. وإنما هى حضارة متميزة، أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان[1].

ويذكر العلماء: أن الحضارة اليونانية، عرفت باسم الحضارة الهيلينية، نسبة إلى «هيلين» الجد الأكبر الخرافى للشعب اليونانى. وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجارى الاستعمارى، ولما فتح الإسكندر المقدونى الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق[2]. فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهيلينية. وأخصبت عدة مراكز فى الشرق. ولما جاء الإسلام وجد فى هذه المراكز حضارة يونانية فى الإسكندرية، وفى إنطاكية وغيرهما. وكان لا بد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود، عنواناً على حضارة هذه الأمة الآرية، التى علّمت الإنسانية جمعاء الكثير من أنماط الفكر وسياقاته.. ولكن كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها، المتصل ببيئة المجتمع اليونانى.. ولذلك حين قام الإسلام بوضع فلسفته، المعبرة عن حضارته كان لا بد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس، وتعارض فى المنهج، وفى المادة، بينه وبين الفلسفة اليونانية[3].

(١) الدكتور جميل صليبا: «تاريخ الفلسفة العربية»، ط: دار الكتاب اللبنانى، سنة ١٩٨٦م.

(٢) انظر: أنور الرفاعى: «الإسلام فى حضارته ونظمه»، ص: ٥٠٠.

(٣) الدكتور على سامى النشار: «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام»، ج١، ص: ١٠٢، ط: دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية، آخذين إياها من مصادرها الشرقية فى البلاد التى فتحوها. فترجموا تراث اليونان فى: الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والميكانيا «الحيل»، والزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية.

ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة وكيف كان يصارع بعضها بعضاً، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر.

فهناك ميادين فى المعتقدات، والإنسانيات اليونانية، قد نفر منها المسلمون، فضربوا عنها صفحاً ولم يترجموها، ولا حتى للمتخصصين من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[1]..

إذن استفاد المسلمون من الحضارة اليونانية فى حدود «قانون التفاعل الحضارى» الذى يميز دائماً وأبداً بين ما هو «خصوصية حضارية» وبين ما هو «مشترك إنسانى عام».

وإذا كان الأمر - كما ذكرت - فلماذا أعطى المسلمون وزناً كبيراً لفلسفة اليونان، ترجمة وشرحاً، حتى تضخمت آثارها، فى تراث المسلمين الحضارى. علماً بأن هذه الفلسفة اليونانية، لا تدخل فى قانون التفاعل الحضارى، ولا تناسب العقائد الإسلامية؟

إن الباحث بعمق. يجد أن المسلمين حين انفتحوا على الحضارة اليونانية، أخذوا منها ما يتفق مع خصوصيتهم الحضارية. ثم واجهوا ما عند اليونان من النمط الهلينى، فى النظر والفكر والتى كانت «الغنوصية» أبرز مذاهبه فى نظريات المعرفة.

كانت «الهلينية» كما وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوها هى: «اليونانية الشرقية» التى امتزج فيها الفكر الفلسفى اليونانى، بروحانية الشرق، ومع هذه «الهلينية» كانت أولى معارك الإسلام الفكرية.. حيث أن المسلمين الذين أبدعوا

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢١٢.

obeikandl.com

عقلانيتهم الإسلامية المتميزة، فأنشأوا علم الكلام الإسلامى، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة منذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى ترجمة الفلسفة اليونانية، وترجمة عقلانية أرسطو أولاً وبالتحديد. لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام، وإنما ليردوا بها كسلاح يونانى على الهلينية وثمرتها «الغنوصية»، التى هى تأثيرات يونانية مزجت بباطنية الشرق، وروحانية الشرقيين.

وأنصار الغنوصية كانوا - كمتغربى هذا الزمان من أبناء الأمة الإسلامية - أثراً يونانياً فى الشرق، وامتداداً شرقياً لفكرية اليونان. فعمد العلماء إلى ترجمة العقلانية اليونانية، ليردوا بها على أنصار اليونان. وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم: إذ كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافد، ومستورد، ويونانى الصنع. فها نحن نجابهكم بأرسطو المعلم الأول عند اليونان، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق، نجابهكم بالعقلية اليونانية نقضاً لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية، استخداماً للأسلحة التى تحترمون وتعظمون[1].

ولا يخفى أن هذه الرؤية العقلية، التى توضح سبب اهتمام المسلمين بالفلسفة اليونانية تنهض الأدلة المختلفة لتأييدها فى قوة.

فلقد كانت الهلينية و«الغنوصية» الباطنية. هى تغريب ذلك العصر، والغزو الفكرى الذى أصاب الغرب اليونانى الشرق. منذ انتصار الاسكندر الأكبر «٣٥٦ق.م-٣٢٣ق.م». على الدولة الفارسية «٣٣٣ق.م» وبنائه امبراطوريته الشرقية الأولى. فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك فى البلاد التى فتحها المسلمون. لكن الإسلام بعد أن بلور عقلانيته المتميزة. تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية فى نضاله ضد الهلينية والغنوص. فكانت ترجمة الفلسفة اليونانية، استعانة بحقيقة الفكر اليونانى على هزيمة صورته الشرقية المهجنة، وبسلاح معترف به من الغنوصيين»[2].

ويقول المستشرق الألمانى بكر كارل هينرش ١٨٧٦-١٩٣٩: «إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها، وتوكيد ذاتها. بإزاء الروح اليونانية المجسدة فى

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢١٣ بتصرف.
(٢) المصدر السابق، ص: ٢١٤.

«الغنوص» يتكرر من جديد فى الإسلام فى القرون الأولى تحت أسماء أخرى. فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهلينية، كان الإسلام فى الصدر الأول على العموم معادياً هو الآخر للروح الهلينية. والميزة الرئيسية للقرآن هى أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهلينية، فى عصر تغلغلت فيه الهلينية، وفى اللحظة التى تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم.. إن المانوية والزرادشتية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية. وإن «غنوص» المانوية، والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً. لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية فى الإسلام. ونعنى بها المعتزلة قد استفادت بعضاً من أصولها، ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية.

وفى كل هذه الألوان من الكفاح. تكونت جبهة كفاح فريدة فى بابها. فالدولة والمذهب الدينى الرسمى، يسيران هنا كما يسيران فى كل مكان، جنباً إلى جنب، وفى صف واحد. لكنهما فى كفاحهما ضد «الغنوص» الذى لا يعترف لأحد بسلطان يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية (الفلسفة اليونانية) كى تساعدهما.

لقد كان الغنوص، يحارب الإسلام دينياً وسياسياً. وفى هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية وعنى بإيجاد عالم من العلوم العقلية.

فكأن الإسلام قد تحالف إذاً مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانية ضد «الغنوص» الذى كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص الباطنية.

ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية.

وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له. لكن إذا كانت الرغبة فى ترجمة كتب الأطباء القدماء، قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب. فلعل ترجمة كتب «أرسطو» أن تكون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلك.

وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسة للعلم، ورغبة خالصة فى تحصيله فحسب. لكان «هوميروس» أو أصحاب المآسى من بين من ترجمت كتبهم أيضاً. لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها، ولم يشعروا بحاجة ما إليها»[1].

لقاء الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية:

إن الباحث فى انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية، يجد أن هذا الانفتاح، قد تحقق من خلال:

١- نقل التراث الإسلامى فى صقلية:

ولا يخفى أن المسلمين قضوا فى حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهاراً شد انتباه غير المسلمين. فلما استولى الأوربيون على جزيرة صقلية استفادوا من الحضارة الإسلامية، واستطاعوا أن ينقلوا إلى لغاتهم تراث المسلمين الحضارى المزدهر فى جزيرة صقلية، مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوربية الحديثة.

٢ - نقل التراث الإسلامى فى بلاد الأندلس:

إن المسلمين استطاعوا فى قوة أن يقيموا حضارة الإسلام فى بلاد الأندلس، وأصبحت بلاد الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى، بلاد الحضارة والعلم. مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها، ويترجمون تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة فى عهد عبدالرحمن الثانى، مركزاً رائعاً للجمال المادى والنشاط الفكرى.. ونما ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث. وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة فى عهد ابن الحكم الثانى الذى كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الإسلامى لابتياع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وإذا كانت قرطبة، وغرناطة وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت فى أيدى

---

(١) بكر كارل هيزش: «التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية»، ص: ٧-٩، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى، ط: القاهرة ١٩٦٥م.

غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارة واصلت ازدهارها فى ظل النقل والترجمة والإبداع.

٣ - نقل التراث الإسلامى أثناء الحروب الصليبية:

كانت الحروب الصليبية صراعاً بين الكنيسة والشرق الإسلامى. وهدف هذه الحروب تخليص الأراضى المقدسة من المسلمين. وقد استمرت قرنين من الزمان. ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هى العامل الوحيد فى تقدم أوربا. حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية. ويرى بعض العلماء: أن الشرق الإسلامى قد أثر فى الغرب المسيحى إبان الحروب الصليبية من أربع نواحٍ هى:

١ - فى الكنيسة البابوية. إذ قامت فى بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلاً من «التيوقراطية» الدينية التى كان يحلم بها البابا.

٢ - كما أثرت الحروب فى الحياة الداخلية والاقتصادية، فى جميع الممالك. إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص. كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضى الأشراف.

٣ - كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للدول ونظام أوربا، بتأثيرها فى الكنيسة من ناحية، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية.

٤ - كما أثرت تلك الحروب فى العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا. فنهضت حركة الارتياد والرغبة فى الاستزادة من المعلومات[١].

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم فاستفادوا من الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة.

إن أوربا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية، وتأخذ عنها، وتستفيد منها. فيما هو «مشترك إنسانى عام»، أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية. فقد رفضها الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية: علوم المادة وظواهرها، وخصائصها.. وعلوم التمدن المدنى والعلمى،

(١) انظر: الدكتور توفيق الطويل: «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية»، ص: ٨٦٧، ١٦٨، بتصرف.

مثل: علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة، والنباتات، والحيوان، والفنون، وعلوم الحرف، والصناعات، والتجارة، والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها، والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، من جبر، وهندسة، وحساب، والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة فيها. . وغير ذلك من علوم وفنون[1].

لقد أخذ الغرب، ما سبق أن أخذناه نحن، عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من الفرس والهنود، وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة. مضافاً إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب، من الحضارة الإسلامية، ما هو «مشترك إنسانى عام»، وترك من الحضارة الإسلامية، ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

«لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية. وهى خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسطية» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية. هو الذى ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادى.

- فالحضارة الإسلامية قامت بعملية «توفيق» ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

- والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة فى خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

- الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع فى ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد فى «ليبرالية» واضحة.

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٤٨.

– والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها. والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها. أما الحضارة الغربية، فكان اهتمامها قائماً على اللذة والشهرة واللحظة. وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى «بالميكيافيلية»: «فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق».

– الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها، فى حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

إذن وبكل تأكيد: هناك ما هو «مشترك إنسانى عام» تأخذه الحضارات من بعضها وتساهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد، الذى يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية، لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ. ونجد ذلك واضحاً فى أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

فالرشدية اللاتينية التى أخذتها أوروبا هى شروح ابن رشد على أرسطو حكيم اليونان، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم والمتكلم والقاضى والفقيه والذى تمثل فى مؤلفاته: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، و«تهافت التهافت»، و«مناهج الأدلة»، فقد رفضته أوروبا رفضاً تاماً.

ويقول الفريد جيوم: «إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو»[2].

وإذا كانت الحضارة الغربية قد رفضت منذ البداية الرشدية الإسلامية؛ كما تمثلت فى مؤلفات ابن رشد الإبداعية، فإن الحضارة الغربية قد رفضت أيضاً إضافات ابن رشد التى تخللت شروحه على أعمال أرسطو. ونهض بهذه المهمة القديس «توماس الأكوينى» (١٢٢٥-١٢٧٤م)، ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٤٩- ٢٥٠، بتصرف.
(٢) الفريد جيوم: «الفلسفة وعلم الكلام»، ص: ٣٩٤، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام.

أرسطو فى ذات الوقت الذى تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التى قدمها لأعمال حكيم اليونان[1].

ومما لا يحتاج إلى بيان أنه كلما استلهمت الحضارات «ما هو مشترك إنسانى عام»، تقدمت الحضارات واستفادت وازدهرت، وانتشر الأمن.

التفاعل الحضارى:

والتفاعل الحضارى ضرورة إنسانية، لا بد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع فى المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

وإذا تأملنا فى حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها - من وجهة نظرنا - محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان، فهى: بعد الأمة عن ماضى حضارى مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان، فهى: بعد الأمة عن واقع حضارى معاصر، تجهل عنه كل شىء. مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك إذا كان لا بد لهذه الأمة، أن تعود إلى التفاعل الحضارى، وتستفيد من حضارات الإنسانية، كان لا بد من خروج الأمة الإسلامية، من الاغتراب الزمانى والاغتراب المكانى، وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارية الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، فى إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير[2]. فإن فعلت الأمة ذلك، كان ذلك بداية فى طريق حضارى.

(١) المصدر السابق، ص: ٣٦٠، ٣٩٤.

(٢) الدكتور محمود قمبر: هدفية العلم فى الإسلام، مجلة حولية كلية التربية، عدد رقم٨ ص: ٦٣، سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م، كلية التربية، جامعة قطر.

وإن التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكرى والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا. ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطى.

ويجدر بنا أن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، ولا التبعية الحضارية بمفيدة. أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء فى طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها. وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هى بدورها وغيرها من الحضارات فى الزمان والمكان.

والنمو الحضارى إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

والأمة الإسلامية وهى تتطلع إلى مستقبل مشرق. لا بد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها. مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها فى وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية فى وضع يسمح لها بأن تنمى فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض فى بناء حضارة إنسانية، ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم فى الحضارة الإنسانية. وإنما ذلك العمل الذى ينمى الحضارة، وينطلق من الإنسان للإنسان.